الغموض في شعر محمود درويش

د.عليلي فضيلة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

يدرس هذا البحث الموجز بعض منابع الغموض في شعر محمود درويش الشاعر الخنديد الذي جعل من قضية تحرر وطنه فلسطين شريعة له، لا يرجع عنها ولا ينفك يذكرها في قصائده،إفصاحا وتلميحا الأمر الذي جعل من الغموض في شعره ملمحا جماليا بارزا ،وسببا من أسباب القوة التعبيرية فيه.

إنّ دراسة الغموض في هذا المقام ليست كما يظنّه بعض الأكاديميين نقيصة من النقائص المنسوبة إلى الشعر العربي المعاصر ،بل إنّها تنطلق من مبدأ واضح وهي أنّ ظاهرة الغموض ملازمة لهذا الشعر ،حيث لايكون إلاّ بها وأنّها- على عكس المعتقد - أضافت له الكثير مما يحسن عدّه وتبيانه ،كما ينبغي أنّ نشير إلى نوعين من الغموض لم يسلم منهما أي شاعر عربي معاصر :غموض فنّي ، وآخر غير فنيّ ،فأمّا الفني فهو ناتج عن نضج التجـربة الشعرية وحسن تمثل مصادرها، في حين ينتج الغموض غير الفني أو الإبهام عن تكديس الرموز والأســـاطير والإغراق في الرؤيا واستحالة الصورة.

والغموض لغة،مصدر من غمض ،جاء في لسان العرب : "كل ما لم يتّجه لك من الأمور فقد غمض عليك ومغمضات الليل دياجير ظُلَمِها وغمض يغمض غموضا وفيه غموض ،قال اللحياني : لا يكادون يقولون فيه غموضة والغامض من الكلام خلاف الواضح ، ويقال للرجل الجيّد الرأي قد أغمض النظر وأغمض النظر إذا أحسن النظر وجاء برأي جيّد وأغمض في الرأي أصاب ومسألة غامضة فيها نظر ودقة ،وحسب غامض غير مشهور ،ومعنى غامض لطيف "[1].

ولعلّ ما يتفق من هذا المعنى اللغوي ،مع الغموض الذي يعرفه الشعر العربي المعاصر ،ما تعلق بإمعان النظر والتأمل الدقيق والرأي الجيّد والمعنى اللّطيف ،غير أنّ الدارسين - في غالبيتهم - يربطون مصطلح الغموض بمصطلحات أخرى كالإبهام الذي يدل على الاستغلاق والتعتيم ، كما نجد كذلك مصطلحي التعقيد والمعاظلة واللذين ارتبطا باللفظ عند العرب القدماء، فالتعقيد عندهم يتولد من سوء ترتيب اللفظ أمّا المعاظلة ،فيقول فيها الآمدي : "ومن المعاظلة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تجانسها وإن أخلّ بالمعنى بعض الإخلال"[2] .

فما يمكن استخلاصه من أمهات النقد العربي أنه وعلى الرغم من أنّ الشعر العربي القديم كان يجنح إلى الوضوح إلاّ أنّه من القدماء من اهتم بالغموض كالقرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء"الذي خصص له جزءا منه سمّاه معرف دال على طرق المعرفة بما يكون به وضوح المعاني أو غموضها ، كما قسّم الدلالة على المعاني إلى ثلاثة: دلالة إيضاح ودلالة إبهام ودلالة إيضاح وإبهام ،ويُرجع وجوه الغموض إلى ما يرجع إلى المعاني حيث يجعلها في ثمانية منها :- أن يكون متضمنا معنى علميا أو خبرا تاريخيا أو محالا به على ذلك أو مشارا إليه فلا يكون الفهم إلاّ بمعرفة هذا المضمن العلمي أو الخبري .

- أن يكون المعنى قد وضعت صور التركيب الذهني في أجزائه على غير ما يجب فتنكره الأفهام لذلك .

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

وإلى ما يرجع إلى الألفاظ : ـ أن يكون اللفظ حوشيا أو غريبا ـ التقديم والتأخير في الكلام ـ تخالف وضع الإسناد فيصير الكلام مقلوبا ، كما أورد القرطاجني كذلك ما يرجع من الغموض إلى الألفاظ والمعاني معا وهوما يمكن قوله عن الشعر العربي المعاصر أيضا، هذا ولم يكتف القرطاجني بعرض هذه الوجوه ، بل عرض لطرق إزالة الغموض.[3]

أما عن موقف هؤلاء من غموض الشعر ،فقد انقسموا إلى فريقين ، ما بين مستحسن ومستهجن وأكثرهم مع رفضه ، كحكم الآمدي على شعر أبي تمام ووصفه بالتعقيد في قوله : " لقد خرج إلى المحال وإلى ما لم يألفه العرب في استعاراتهم ولغتهم حيث جعل للدهر أخدعا ويدا تقطع من الزند ....وجعل للمدح يدا ولقصائده مزامير إلاّ أنّها لا تنفخ ولا تزمّر ، وجعل المعروف مسلما تارة ومرتدّا تارة أخرى "[4]

وبالمقابل من ذلك نجد أنّ الغموض في الشعر العربي المعاصر سمة بارزة ونهج طبيعي يلازمه ملازمة المجهول للإنسان ،ذلك الشيء العميق الذي نحسّه في أعماقنا دون أن نعيه، ونتيجة حتمية لعصر اجتمعت فيه كل المتناقضات وتراجعت فيه الإنسانية وتسارع فيه الزمن وتحققت فيه كل نبوءات التطور العلمي،وهو غموض ظاهر في شعر محمود درويش ،أكثره فني حيث يمكن تلخيص وصفه في قول أدونيس: "الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق ، الشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا "[5].

هذا القول يدفعنا إلى التساؤل حول الفجوة التي أحدثها هذا الشعر بين الشاعر والمتلقي وإلى أي جهة يمكن رد غموضه إذ نخلص إلى أنّ هذا الغموض قد أضاف الكثير إلى الشعر العربي من جهة وإلى اللغة الشعرية من جهة أخرى ،ومن صور هذا الغموض في شعر محمود درويش والتي تعود إلى توظيف الرمز قوله :

–والرمل هو الرمل، أرى عصرا من الرمل يغطينا

–وضاع الرمل في الرمل

–وأغيب الآن في عاصفة الرمل[6]

فرمز الرمل هنا يتّخذ دلالات متغيرة ،حيث يشير في السطر الأوّل إلى معنى الركود ،إلى العالم العربي الذي ظلّ قابعا في مكانه–في تلك الفترة أين أصيب الفرد العربي بإحساس الانهزام أمام الغرب نتيجة انقلاب موازين القوى ومعاناة الشعوب من آثار الحركات الاستعمارية– ، يعيش الحاضر بأساليب الماضي ، فعصر الرمل الذي يغطينا هو الحياة القديمة العاجزة عن مسايرة العصر والتي لازالت تكبّلنا ، أمّا في السطرين الأخيرين يشير الرمل إلى التيه والضياع في هذا الوجود إضافة إلى الغربة الروحية والمصير المجهول، حيث نستنتج أنّ توظيف الرمز أصبح روح الغموض في الشعر العربي المعاصر ولفك خيوطه المتشابكة وبلوغ إيحاءاته وجب التسلّح بثلاث : الثقافة الكافية والموهبة الخالصة والذوق الأدبي الحقيقي.

ومن صور هذا الغموض أيضا في شعر محمود درويش عملية التجاوز اللّغوي والدلالي ، فالشاعر المعاصر لم تعد اللّغة تكفيه فكان عليه أن ينظم شعرا في لغة جديدة أو شعرا هو اللّغة الجديدة يقول محمود درويش:

–أنا ضد العلاقة

–أن تكون بداية الأشياء دائمة البداية

–هذه لغتي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

–أنا ضد البداية [7]

ومن أسباب الغموض في شعر درويش نجد الدلالات المفاجئة التي تسبب حيرة للمتلقي كقوله :

–وتأتي العصافير غامضة كاعتراف النبات

–وواضحة كالحقول[8]

فكيف هو اعتراف النبات وإلى ما يرمز النبات"؟ ولمعرفة الإجابة ينبغي قراءة كل قصائده وتنظيم الدلالات في جدول يرجع إليه المتلقي لفهم مقصود الشاعر وهو عمل ينفر منه أهل الاختصاص ، فكيف بالقارئ العادي ،إذن فهذا الشعر يتطلب قارئا من نوع خاص قارئ قادر على الخلق والاستنتاج .

ومن شاكلة هذا نجد قوله كذلك: **–النحل يمشي في الدّم المتقدّم**[9]

ثم يقول :**حاور السجّان صمتي**

–قال صمتي برتقالا[10]

فالمتلقي يجد في لغة الشاعر ما لم يخطر بباله أبدا، إذ أنّ الشاعر أثناء بحثه عن اللغة الجديدة ينصرف إلى تكثيف الدلالة ، فيستخدم الألفاظ في غير الموضع المألوف الأمر الذي يؤدي إلى إخفاق توقع القارئ ، كقول محمود درويش : –في زمن الدخان يضيء تفاح المدينة

إنّ المتلقي بإمكانه توقع أي كلمة بعد كلمة زمن ،كأن تكون وصفا له مثل قولنا :زمن موبوء ،فيتساءل : كيف يكون زمن الدخان هذا هل هو الزمن المتسارع المنطلق كانطلاق الدخان ؟أم هو الزمن الملوث أم زمن الصناعة والتكنولوجيا أم زمن المفارقة أم ماذا ؟،كما أنّه يتوقع أن يجد بعد كلمة يضيء مصدرا للضوء ماديا كان كالشمس أو معنويا كالابتسامة والروح وغيرها ،غير أنّ الشاعر يصدم هذا التوقع.

ومن الغموض في شعر درويش ما يمكن تسميته بلعبة الألوان ، فالشاعر يلون الأشياء بأي لون شاء ،حيث لا يقتصر هذا التلوين على الملموس وإنّما يتجاوزه إلى المحسوس فيجعل الندم أبيضا في قوله:

–تقلد في العائدات من الندم الأبيض[11]

وقوله : **–كثر الحياديون أوكثر الرماديون**

فلمعرفة المقصود وجب على المتلقي قراءة القصائد الأخرى التي يرد فيها اللون الرمادي ،خاصة وأنّ هذا اللون يكثر في قصائده ومثل هذا أيضا قوله : الصوت أسود، ثم يجعله أخضرا :الصوت أخضر ،حيث نخلص إلى أنّه أصبح لكل شاعر لغة خاصة ومعجم خاص به، الأمر الذي أثرى لغة الشعر وقضى على التكرار في محاولة للقبض على الوجود مما ألقى مسحة جمالية صنعها الغموض.

ومن صور الغموض في شعر محمود درويش نجد أيضا، الصورة ذات التركيب الغريب المعقد، فقد استبدل الصورة التقليدية المنطقية بالصورة الحلم التي يكتنفها الغموض وهي صورة قائمة على تموجات النفس وما يختلجها من انفعالات ،من ذلك قوله في قصيدة " تقاسيم على الماء ":

–لكي أصف اللحظة العائمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على الماء

أسطورة أوسماء

وقوله في قصيدة "النزول من الكرمل ": **– تصببت الريح من جبهتي**

وقوله في قصيدة "تأملات في لوحة غائبة ":**–ها هو الوقت يثمر تفاحة**

وقوله في قصيدة "طوبى لشيء لم يصل" :**–أفلست الحواس وأصبحت قيدا على أحلامنا**

فالصورة الشعرية بأنواعها : المفردة والمركبة والكلية ،أصبحت موطنا للغموض الناتج عن الصياغة الفنية المعقدة أحيانا ،وللإبهام الناتج عن تكديس الرمز والإغراق في تداعي الحلم أوالتجريد الصوفي والمجاز المستحيل أحيانا أخرى.

إنّ المتأمّل في شعر محمود درويش يجد أنّ أكثر الغموض في شعره يرجع إلى اعتماده أسلوب المفارقة فيه ،ذلك أنّها تتطلب ثلاثة شروط أساسية–حسب نبيلة إبراهيم– :[12] أولا: وجود مستويين في التعبير الواحد، المستوى السطحي للكلام على نحوما يعبر به ، والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه، والذي يلح القارئ على اكتشافه.

ثانيا: لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلاّ من خلال إدراك التعارض والتناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنّص .

ثالثا:لا بد من وجود ضحية للمفاقة (غالبا ما يمثلها القارئ)

ومن مثل هذا قول شاعرنا في قصيدته نشيد إلى الأخضر:

إنّك الأخضر لا يشبهك الزيتون ، لا يمشي إليك
الظلّ لا تتّسع الأرض لرايات صباحك
ونشيدي لك يأتي دائما أسود من كثرة موتي قرب نيران
جراحك
فلتُجَدِّد أيّها الأخضر موتي وانفجاري
إنّ في حنجرتي عشرة آلاف قتيل يطلبون الماء
جِدِّد أيّها الأخضر صوتي وانتشاري
إنّ في حنجرتي كفًّا تهز النخل
من أجل فتى يأتي نبياً
أي: فدائياً[13]

إنّ القارئ لهذه الأبيات والمتأمّل في معانيها سيبحث حتما عن هذا الأخضر الذي ينشد إليه الشاعر وهوفي الغالب وطنه فلسطين الذي غَمُضت حوله مواقف العالم وسُلبت أرضه وتمادى المحتل ، فكان لابدّ من أسلوب قوي يترجم غضب الشاعر واستهزاءه بهذا العالم ، وكان المتلقي ضحية هذا التوظيف إذ تتعددّ الدلالات المحتملة لهذا الأخضر : الوطن – المقاومة – الاستقلال ... وقد يصيب القارئ وقد يخطئ ويبقى الشرح والحكم ملكا للشاعر ورهينة التأمل العميق في جميع شعره.

الهوامش:

1. ابن منظور "لسان العرب "،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،دط ،دت ،باب الغين مادة غ م ض ،ج9 ،ص ص64-65.
2. الآمدي "الموازنة بين أبي تمام والبحتري " تحقيق محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العلمية، بيروت،لبنان ،دط ، دت، ص259.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3. ينظر القرطاجني (أبوالحسن حازم) "منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط2،ص ص172-175 .
4. الآمدي "الموازنة بين أبي تمام والبحتري " ،ما في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات ص ص 233-234.
5. أدونيس (علي أحمد سعيد) "مقدمة للشعر العربي "،دار العودة بيروت ،ط3 ،1979،ص124.
6. محمود درويش "الديوان" ،دار العودة بيروت ط2 ،1968،قصيدة الرمل ، ص496.
7. محمود درويش "الديوان " المجلد الثاني ، ص 400.
8. محمود درويش " الديوان " المجلد الثاني ص515.
9. المصدر نفسه،ص383.
10. نفسه ،ص394.
11. نفسه ص371.
12. نبيلة إبراهيم" المفارقة" مجلة فصول ، العدد الثالث والرابع أبريل وسبتمبر 1987،ص ص131-142 .
13. محمود درويش "الديوان " ص374.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com